الفصل الرابع

الإعجاز التأثيري

أعظم وأبلغ ما أثر في النفوس والقلوب والعقول هو القرآن المجيد، ولما أنزله الله على رسوله محمد ﷺ وسمعه العرب أحدث القرآن فيهم يقظة ووعيًا، وتنفَّس في نفوسهم صبح الحق، وأشرقت في قلوبهم أنوار الهداية، وأخذ القرآن بألبابهم وسيطر جلاله وجماله على عقولهم فانقادوا له مذعنين وبعد عدائهم وعنادهم له صاروا به عاملين ولحكمه منقادين وانضوت جموعهم تحت لوائه المبين.

إن القرآن إذا تليت آياته وفهمت معانيه رؤيت آثاره ظاهرة وباطنة، ولو أنزل هذا القرآن العظيم على جبل أصم صلد صلب فإنه سوف يتصدع ويتضعضع ويتزلزل من خشية الله جَلَّ جَلاله كما قال تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر: ٢١]، فهو في القلوب أبلغ أثرًا وأعظم وأشد تأثيرًا؛ لأن مواعظه أعظم المواعظ وأوامره ونواهيه محتوية على الحكم والمصالح كلها.

يقول الغزالي رحمه الله وعفا عنه: إن هذا القرآن يملك على الإنسان نفسه بالوسيلة الوحيدة التي تقهر تفوقه في الجدل وذلك بتقديم الدليل المفحم لكل شبهة وتسليط البرهان القاهر على كل حجة [1]، إنه لا يوجد في هذا العالم كتاب يأمر بالحق كله وينهى عن الباطل كله بأكمل أسلوب وأبلغ عبارة إلا القرآن، إنه يصوغ النفوس صياغة جديدة ويستنقذها من دركات الكفر والضلالة ويرد إليها قيمتها الحقيقية، ويهذب ضمائرها وأخلاقها، وليس ثمة كتاب في العالم يمتلك ما يمتلكه القرآن من تهيئة النفوس لأسعد حياة وأهنأ عيش وأطيب خلق وأقوم السبل وأعدل الطرق.

---

(١) نظرات في القرآن الكريم لمحمد الغزالي ص(١٢٧)ط. دار الكتب الحديثة.

وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]، قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: جواب لو في هذه الآية محذوف، قال بعض العلماء تقديره لكان هذا القرآن، وقال بعضهم تقديره لكفرتم بالرحمن، ويدل لهذا الأخير قوله قبله: «**وهم يكفرون بالرحمن**» (١).

يقول الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يقول تعالى مادحًا للقرآن الذي أنزله على محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومفضلًا له على سائر الكتب المنزلة قبله ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ أي لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها أو تقطع به الأرض وتنشق أو تكلم به الموتى في قبورها لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره أو بطريق الأولى أن يكون كذلك لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الجن والإنس عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله ولا بسورة من مثله، ومع هذا فهولاء المشركون كافرون به جاحدون له ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ أي مرجع الأمور كلها إلى الله عَزَّ وجَلَّ ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وقد يطلق اسم القرآن على كل من الكتب المتقدمة؛ لأنه مشتق من الجميع عن أبي هريرة قال قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خففت القراءة على داود فكان يأمر بدابته أن تُسرج فكان يقرأ القرآن من قبل أن تسرج دابته وكان لا يأكل إلا من عمل يده**» (٢)، والمراد بالقرآن هنا الزبور، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي من إيمان جميع الخلق ويعلموا أو يتبينوا ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ فإنه ليس ثمة حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجح في العقول والنفوس من هذا القرآن الذي لو أنزله على جبل رأيته خاشعًا متصدعًا من خشية الله، وثبت في الصحيح أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ما من نبيٍّ إلا وقد أوتي ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيًّا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون**

(١) «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» (٣/ ٩٠)، ط: مكتبة ابن تيمية.

(٢) رواه البخاري برقم [٣٤١٧].

أكثرهم تابعًا يوم القيامة»[١]، معناه أن معجزة كل نبيٍّ انقرضت بموته، وهذا القرآن حجة باقية على الآباد لا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد ولا يشبع منه العلماء وهو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله[٢].

وهذا باب عظيم من أبواب إعجاز القرآن ألا وهو عظمة تأثيره في النفوس وجاذبيته العظيمة للمشاعر والقلوب وأخذه بالألباب والعقول، وهذا الباب من أروع وجوه إعجاز القرآن وإن لم يتفطن له الكثير من الناس.

يقول الإمام الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ: في إعجاز القرآن وجه آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس فإنك لا تسمع كلامًا غير القرآن منظومًا ولا منثورًا إذا قرع السمع خلص له القلب من اللذة والحلاوة في حال ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد علاها الوجيب والقلق، وتغشاها الخوف والفرق، وتقشعر منه الجلود، وتفزع له القلوب، يحول بين النفس ومضمراتها وعقائدها الراسخة فيها، فكم من عدو للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله فسمعوا آيات من القرآن فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول وأن يركنوا إلى مسالمته ويدخلوا في دينه وصارت عداوتهم موالاة وكفرهم إيمانًا[٣].

تأمل حال العرب قبل نزول القرآن كيف كان، وتأمل نفوسهم كيف كانت وما أن نزل القرآن حتى صاغ منهم قومًا آخرين بقلوب جديدة ونفوس مطمئنة وعقول واعية،

---

(١) رواه البخاري برقم [٤٩٨١]، ومسلم برقم [١٥٢].

(٢) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير الدمشقي (٤/ ٣٢١)، ط: التوفيقية.

(٣) «إعجاز القرآن» للإمام الخطابي، ص [٧٠] نقلًا عن القرآن يتحدى لأحمد عز الدين، ص [١٢٩]، ط: دار صادر.

obeikandi.com

وتغيرت الآمال والاهتمامات والهمم من ترهات وسفاهات ونذالات إلى التنافس والتسابق في أعلى الدرجات في جنات الفردوس، فيا لها من نفوس أنصتت لكلام ربها فطابت وزكت وزكت بزكاتها نفوس واهتدت بهدايتها قلوب.

نعم نزل القرآن فصدع الكفر والطغيان ودهده الباطل وزلزل العناد ودمدم الجهل وصنع من الصخور الصلدة الجافية أنهارًا للحياة وفجر فيها ينابيع من التقى والنبل والإيمان، وأقام القرآن من هذا الفتات القبلي العربي المتناثر جسدًا قويًا ينبض بكل معاني الحياة ويقدم التضحية بكل شيء لإعلاء كلمة الله وتعبيد الناس لربهم جَلَّ جلاله، لقد ولد العرب حقًّا ميلادًا جديدًا بعد نزول القرآن فأبصروا الحق بعد العمى، وعرفوا الهداية بعد طول التيه والضلال، وأشرقت في قلوبهم أنوار التوحيد بعد ظلمات حالكة عششت فيها زمانًا طويلًا، واستنارت قلوبهم بالعلم بعد طول أسر في براثن الجهالة، نعم لقد كان العرب قبائل مبعثرة وجماعات متناحرة هم أحدهم ما يأكله، وهمته ما يروي غريزته، تثور بينهم أشد الحروب لأتفه الأسباب، يقتل أحدهم ولده مخافة أن يطعم معه وفي الوقت ذاته يغذي كلبه، ويدسُّ ابنته في التراب وهي على قيد الحياة، يعبدون ما ينحتون ويسجدون لما يصنعون سفاهة في العقول وقسوة في القلوب وثقل في الطباع وخلود إلى العاجلة والدنايا، الحجارة آلهتهم وقلوبهم أقسى منها وما كان لشيءٍ قط أن يصلح هذه النفوس وأن يستنقذها من هذا الدرك المنحط وأن يسمو بها إلى سماء السمو الإيماني إلا القرآن المجيد، القرآن وحده هو القادر على صياغة النفوس وإصلاحها؛ لأنه كلام الخلَّاق العليم الحكيم الخبير، قال عز اسمه: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].

نعم لقد أوجد القرآن من العرب أمة قوية ومجتمعًا مثاليًا فاضلًا ونفوسًا بلغت أعلى درجات الطهر وأسمى مراتب الإيمان، فهذا عمير بن الحمام يسارع بتقديم روحه لإعلاء عقيدته ودينه، وذلك حنظلة بن أبي عامر يؤثر رضوان الله وجنته على مراد نفسه

وشهوته ويخرج من بين أحضان عروسه ليسفك دمه وتمزق أشلاؤه في سبيل الله؛ لأنه تقرر في قلبه ورسخ في روحه أن ما عند الله خير وأبقى، وهذا أنس بن النضر يجالد ويجاهد حتى يقع صريعًا على الأرض به ثمانين ضربة ما بين طعنة برمح أو ضربة بسيف أو رمية بسهم، وهذا جعفر بن أبي طالب تقطع يداه ويطعن جسده ويفقد حياته ليحيى حياة أكمل عند مليك مقتدر، وهذا حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه يمزق الرمح أحشاؤه ثم يمثل المشركون بجسده بعد موته وكل هذا لإعلاء كلمة الله ونصرة العقيدة، وهذا طلحة رضي الله عنه يستميت في القتال والدفاع عن رسول الله حتى تشل يده، وغير ذلك من الأمثلة النيِّرة الكثيرة التي حفل بها سجل البطولة والفداء لدى هؤلاء الصحابة العظماء، حيث رأينا في سيرهم ما يبهر العقول ويدهش الألباب من بطولات نادرة وتضحيات عظيمة ما عرف التاريخ البشري لها نظيرًا ولا مثيلًا ، وسر هذا السمو العالي وهذا التفوق الإيماني الكامل هو القرآن العظيم الذي رباهم على معانيه وأحكامه رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم .

قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه :

وفينا رسول الله يتلو كتابه	إذا انشق معروف من الفجر ساطعُ
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا	به موقنات أن ما قال واقعُ
يبيت يجافي جنبه عن فراشه	إذااستثقلتبالمشركينالمضاجعُ

صور من تأثير القرآن:

يؤثر القرآن أعظم الأثر في النفوس التي تصغى إليه فيجعلها طيِّعةً لأوامره، منقادة لأحكامه، مذعنة لبيانه، مطمئنة بتلاوته، فتخشع أجساد المؤمنين في سجودهم وتلهج ألسنتهم بذكر الله، وتتفطر أقدامهم من القيام في الليل بين يدي الله، قال ربنا جل وعلا: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ

وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٥-١٦].

تلك مظاهر تأثرهم بالقرآن إذا سمعوا آياته ترى سجودًا خاشعًا وتواضعًا واستكانة وقيامًا في الليل يخافون العذاب ويطمعون في الثواب، وكل هذه صفات لذواتهم وتزكية لنفوسهم، وأما تأثيرهم ونفعهم لغيرهم ومجتمعهم فقد جعل القرآن أيديهم تنفق بسخاء مما رزقهم الله جَلَّ جَلاله.

وتأمل تأثير القرآن كذلك في قوله الله تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الزمر: ٢٣].

وكذلك في قول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٣].

قال قتادة هم قوم كانوا على دين عيسى بن مريم، فلما رأوا المسلمين وسمعوا القرآن أسلموا ولم يتلعثموا، قال ابن كثير: واختار ابن جرير أن هذه الآيات نزلت في صفة أقوام بهذه المثابة سواء كانوا من الحبشة أو غيرها [(١)].

وتلمح تأثير القرآن كذلك في قول الله تعالى: ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦-١٠٩].

ومن ذلك ما أورده ابن هشام في السيرة النبوية في بيعة العقبة الأولى أنه دار حوار بين الرسول ﷺ ونفر من خزرج المدينة، فقال ﷺ: «**من أنتم؟**» قالوا:

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ١١٩).

نفر من الخزرج، فقال: «**من موالي يهود؟**» قالوا: نعم، قال: «**أفلا تجلسون أكلمكم؟**» قالوا: بلى، فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عَزَّ وجَلَّ وعرض عليهم الإسلام وقرأ عليهم القرآن[١] فآمنوا وصدقوا.

ومن شدة تأثير القرآن في النفوس تواصى أهل الكفر فيما بينهم ألا يستمعوا إليه وذلك حتى لا يقعوا تحت تأثيره فيقودهم إلى الإسلام والإيمان قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فُصِّلَتۡ: ٢٦]، ويستشعر الكفار ثقل هذا القرآن على نفوسهم ويتضجرون بما يجدون فيه من عجائب الخطاب وروائع البيان وكشف لأستار النفوس فلا يسعهم إلا أن يعرضوا على محمد ﷺ أن يأتي بقرآن غيره أو يبدله ويسجل القرآن عرضهم هذا في قول الله سبحانه: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [يُونُسَ: ١٥-١٦]، وهذا منطق العجزة الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلًا أمام هذا الخطاب المعجز الذي يبهر منهم النفوس ويخرس منهم الألسنة ويتركهم مشدوهين في حيرة مطبقة لا يطيقون معها إلا هذا الطلب الساذج أن يغير هذا القرآن المعجز أو يبدله[٢].

القرآن وصياغة النفوس:

أولًا - الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل إسلامه غليظًا جافيًا، عدوًا لدودًا، وخصمًا عنيدًا للإسلام وأهله، يدافع عن الجاهلية بكل ما أوتي من قوة ويبطش بطشًا شديدًا

---

(١) «صحيح السيرة النبوية» لإبراهيم العلي، ص (١٤٥-١٤٦)، ط. دار النفائس.

(٢) مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، ص(٦٨-٦٩)، العدد [٣٦] لسنة ١٩٩٨.

بالمستضعفين الذين دخلوا في دين الله عَزَّ وجَلَّ حتى عرفت شدته وغلظته وعرف عداؤه الشديد لهذا الدين الجديد حتى اعتبر المستضعفون من المسلمين أن إسلام عمر هو المستحيل بعينه، وإليك هذا الخبر الذي يوقفك على شيءٍ من هذا المعنى ونقف من خلاله على أول رقة يعهدها قلبه لهؤلاء المستضعفين، قالت أم عبد الله بنت أبي حثمة: لما كنا نترحَّل مهاجرين إلى الحبشة أقبل عمر حتى وقف عليَّ وكنا نلقى منه البلاء والأذى والغلظة علينا فقال لي: إنه الانطلاق يا أم عبد الله؟ قلت: نعم والله لنخرجن في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا فرجًا فقال عمر: صحبكم الله ورأيت منه رقة لم أرها قط، فلما جاء عامر بن ربيعة وكان قد ذهب في بعض حاجته وذكرت له ذلك، فقال: كأنك قد طمعت في إسلام عمر؟ قلت له: نعم، فقال: إنه لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب[1].

بل بلغ من شدته وغلظته أن أوثق أخته وزوجها ليصدهما عن الإسلام كما روى البخاري عن سعيد بن زيد رضي الله عنه قال لقوم: لو رأيتني موثقى عمر على الإسلام أنا وأخته وما أسلم[2].

هذه الغلظة وهذا الجفاء يتحول إلى رقة عجيبة وخشية لله عظيمة بعدما يتروَّى هذا القلب الظمآن من معين القرآن وينهل من بركته وخيره ويتزكى بتعاليمه وأحكامه فيجعل القرآن من هذه الشخصية الصلبة القاسية شخصية أخرى تفيض بالرقة والرحمة والخشية والمراقبة لله جَلَّ جلاله.

عن شريح بن عبيد قال: قال عمر بن الخطاب قبل أن يسلم لآتين محمدًا قال: فوجدته سبقني إلى المسجد، فقمت خلفه فاستفتح سورة الحاقة، فجعلت أعجب من تأليف القرآن، فقلت: هذا والله شاعر كما قالت قريش، قال فقرأ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحَاقَّة: ٤٠-٤١]، قلت: كاهن، قال: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٢١٦)، فضائل الصحابة للإمام أحمد (١/ ٣٤١).

(٢) رواه البخاري برقم [٣٨٦٧].

قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٢-٤٣]، إلى آخر السورة، فوقع الإسلام في قلبي كل موقع[١].

ويحول القرآن الكريم من هذه النفسية الضيقة إلى علم غزير ويقين عميق ويحول القرآن تلك الهمة التي لم تكن تهتم إلا بالأصنام والأوثان إلى نفسية صافية تمتلئ بالتوحيد والإيمان وتبلغ فيه شأوًا بعيدًا ومكانة عالية.

تأمل هذا الحديث الجليل الذي يبين فيه الرسول ﷺ رسوخ الإيمان في قلب عمر رضي الله عنه، ففي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**بينا أنا نائمٌ رأيت الناس عرضوا عليَّ وعليهم قمص- جمع قميص- فمنها ما يبلغ الثدي ومنها ما يبلغ دون ذلك وعرض عليَّ عمر وعليه قميص يجرُّه**» قالوا: فما أولته يا رسول الله، قال: «**الدين**»[٢]، وأما عن علمه وفقهه وفهمه فقد ورد في الصحيحين كذلك أن رسول الله ﷺ قال: «**بينا أنا نائم شربت - يعني اللبن - حتى أنظر إلى الري يخرج من ظفري - أو في أظفاري - ثم ناولت عمر**»، قالوا: فما أولته يا رسول الله؟ قال: «**العلم**»[٣].

وبعد أن كان من حزب الشيطان وجنده إذ به يتحول إلى شخص مهيب وتقي أواب تفرُّ منه الشياطين وتخضع له جبابرة الملوك والسلاطين، ففي الصحيحين أيضًا من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إيه يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكًا فجًّا إلا سلك فَجًّا غير فجِّك**»[٤].

---

(١) رواه أحمد (١/ ١٧-١٨)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٦٢) رواه الطبراني في «الأوسط» ورجاله ثقات إلا أن شريح ابن عبيد لم يدرك عمر وقال إبراهيم العلي: وهذه أقرب الروايات إلى الصحة ومع ذلك فهي مرسلة لكن شريح بن عبيد ثقة كما في «التهذيب» (٤/ ٣٢٨)، و«التقريب» (١/ ٣٤٩).

(٢) رواه البخاري برقم [٣٦٩١]، ومسلم برقم [٢٣٩٠]، والترمذي برقم [٢٢٨٦].

(٣) رواه البخاري برقم [٣٦٨١]، ومسلم برقم [٢٣٩١]، والترمذي برقم [٣٦٨٧].

(٤) رواه البخاري برقم [٣٦٨٣]، ومسلم برقم [٢٣٩٦].

ويتحول القلب القاسي إلى ينبوع حكمة ورقة وخشية، ويتصف بطول القنوت والتبتُّل، عن أبي قتادة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر: «**متى توتر؟**» قال: أوتر من أول الليل، وقال لعمر: «**متى توتر؟**» قال: آخر الليل، فقال لأبي بكر: «**أخذ هذا بالحزم**»، وقال لعمر: «**أخذ هذا بالقوة**»(١).

وعن زيد بن أسلم عن أبيه أنه ذكر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان له ساعة من الليل يصلي فيها، فربما لم يقم فنقول: لا يقوم الليلة كما كان يقوم فكان يقوم وكان إذا استيقظ أقام أهله وقال: ﴿ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا ﴾ [طه: ١٣٢](٢).

وقال عمر رضي الله عنه لمعاوية بن خديج: لئن نمت بالنهار لأضيعنَّ الرعية، ولئن نمت بالليل لأضيعنَّ نفسي، فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية(٣).

ويقول ابن عباس رضي الله عنهما: دعاني عمر بن الخطاب فأتيته فإذا بين يديه نطع عليه الذهب منثور حثًا قال: هلم فاقسم هذا بين قومك، فالله أعلم حيث زوى هذا عن نبيه عليه السلام وعن أبي بكر وأعطيته لخير أعطيته أو لشر؟

قال ابن عباس: فأكببت عليه أقسم وأزيِّل (أي أفرق)، فسمعت البكاء فإذا صوت عمر يبكي ويقول في بكائه: والذي نفسي بيده ما حبسه عن نبيه صلى الله عليه وسلم وعن أبي بكر إرادة الشر لهما وأعطاه عمر إرادة الخير له(٤).

وأخبار خشيته رضي الله عنه وزهدة في الدنيا وعدله وتواضعه كثيرة شهيرة ومظانها معلومة والذي أريد الإشارة إليه أن ننظر كيف حول القرآن شخصية عمر رضي الله عنه هذا التحول العظيم وكيف أعلى مكانته إلى هذه المنزلة السامية في الإسلام، وإنما تربى عمر في

---

(١) رواه أبو داود [١٤٣٤]، وصححه الألباني في صحيح أبي داود [١٢٧١].

(٢) عزاه ابن كثير لابن أبي حاتم بسنده «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٤٢)، ط: التوفيقية.

(٣) «الزهد» للإمام أحمد، ص [١٢٣].

(٤) «الطبقات» لابن سعد (٣/ ٢٣٠).

obeikandl.com

مدرسة النبوة على يد رسول الله محمد ﷺ وذلك على هدي هذا القرآن العظيم ومواعظه وأحكامه.

ثانيًا- مصعب بن عمير رضي الله عنه:

وهذا هو الشاب المنعَّم المدلَّل الذي كان غارقًا في الرفاهية والنعيم فلم يكن هناك من يلبس مثل ثيابه ولا يتعطر بمثل عطره وحينما أشرق في قلبه الإيمان وذاق نعيمه ولذته عرف أن كل ذلك سحابة صيف وظل زائل، وأن نعيم الآخرة هو الأبقى والأعلى فخلع رداء الجاهلية بزخارفه الخادعة وانصبغ بصبغة العبودية الخالصة لله جَلَّ جلاله ليحوز النعيم الأكمل والثواب الأوفى في جنات وعيون مع النبيين والصديقين والشهداء، ويثبت هذا البطل الصادق الموقن أمام كل الفتن ويصبر على دينه رغم شراسة البلاء ويصطنع القرآن منه أسطورة في البذل والفداء والتضحية والعطاء فيزهد في نعيم الدنيا الزائل ويرغب في الآخرة ويؤثرها؛ لأن القرآن قد غرس في قلبه أن الآخرة خير وأبقى، نعم يؤثر الفقر في الدنيا لينال الكرامة كاملة في الآخرة، يؤثر شظف العيش والغربة عن الأهل والديار ليقينه في ثواب ربه، بل ويموت يوم يموت ولا يوجد له ما يكفن فيه كما ثبت في الصحيحين عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: هاجرنا مع النبي ﷺ نريد وجه الله فوقع أجرنا على الله فمنا من مضى لم يأخذ من أجره شيئًا منهم مصعب بن عمير قُتِل يوم أحد وترك نمرة فكنا إذا غطينا بها رأسه بدت رجلاه وإذا غطينا رجليه بدا رأسه فأمرنا رسول الله ﷺ أن نغطي رأسه نجعل على رجليه شيئًا من إذخر ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهد بها[1].

إن قيمة كل إنسان بذله وعمله وتضحيته في سبيل الله وثواب الله أعظم ما تبذل في سبيله النفوس والأرواح، إنه لا يضر المؤمن أن يموت فقيرًا أو غنيًا، إنما يعنيه أن يصل إلى رضوان ربه لقد جعل القرآن الكريم من مصعب عالمًا بصيرًا موقنًا ولو مات على حاله

(١) رواه البخاري برقم [٣٨٩٧]، ومسلم برقم [٩٤٠].

الأول لانتهى نعيمه بانتهاء حياته، ولكنه اختار تلك المنزلة التي يبدأ فيها نعيمه الكامل بمجرد خروج روحه، هذا هو الفهم السديد والعزيمة الصادقة والبطولة النادرة التي يفتقدها الواقع المعاصر الى حدٍّ كبير، ولعظمة الإيمان في قلب مصعب وقوة حبه وفهمه وحفظه لآيات القرآن الحكيم اختاره الرسول ﷺ لمهمة كبيرة لا يؤهل لها إلا مثل هذا البطل الصادق، لقد أرسله رسول الله ﷺ ليكون سفيرًا للإسلام يفتح قلوب أهل المدينة بالقرآن ويذلل نفوسهم للإسلام، وقام البطل الصبور الحكيم بالمهمة على الوجه المطلوب حتى أشرقت المدينة بنور ربها، وآتت هذه الدعوة المباركة ثمرتها، وصارت المدينة بعد ذلك دار الإسلام وموئل الإيمان وقاعدة انطلاقه إلى العالم كله، ومما يذكر لهذا البطل أنه أسلم على يديه صديق الأنصار سعد بن معاذ الذي اهتز لموته عرش الرحمن، وأسيد بن حضير الذي نزلت لتستمع قراءته ملائكة الرحمن، وإليك هذا المشهد الذي يجسد صفة صادقة لهذه الشخصية الكريمة التي اصطنعها القرآن وصارت هادية بإذن ربها بهذا القرآن إلى الإسلام، وتأمل كذلك كيف صاغ القرآن من سعد بن معاذ وأسيد بن حضير حتى أعلاهما إلى تلك المكانة السامية التي وصلا إليها رضي الله عنهما.

روى ابن إسحاق أن أسعد بن زرارة خرج بمصعب بن عمير يريد به دار بني عبد الأشهل ودار بني ظفر، وكان سعد بن معاذ بن خالة أسعد بن زرارة فدخل به حائطًا من حوائط بني ظفر على بئر يقال لها بئر مرق، فجلسا في الحائط واجتمع إليهما رجال ممن أسلم وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير يومئذٍ سيِّدا قومهما من بني عبد الأشهل، وكلاهما مشرك على دين قومه، فلما سمعا به قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير: لا أبالك انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا ديارنا ليسفها ضعفاءنا، فازجرهما وانههما عن أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة منى حيث ما قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدمًا، قال: فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إليهما فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب بن عمير: هذا سيِّد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه، قال مصعب

إن يجلس أكلمه قال: فوقف عليهما متشتمًا، فقال: ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كان لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب: أوتجلس فتسمع فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكره؟ قال: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس إليهما فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فقالا فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل وتطهر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلي، فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلًا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحدٌ من قومه، وسأرسله إليكما الآن سعد بن معاذ، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم.

فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلًا، قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين فما رأيت بهما بأسًا وقد نهيتهما، فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حدثت أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنه ابن خالتك ليخفروك، قال: فقام سعد مغضبًا مبادرًا تخوفًا للذي ذكر له من بني حارثة، فأخذ الحربة من يده ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئًا ثم خرج إليهما، فلما رآهما سعد مطمئنين عرف أن أسيدًا إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتمًا، ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة: أما والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني أتغشانا في دارينا بما نكره؟ وقد قال: سعد بن زرارة لمصعب بن عمير: أي مصعب جاءك والله سيد من وراءه من قومه إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان، قال: فقال له مصعب: أوتقعد فتسمع، فإن رضيت أمرًا ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره؟ قال سعد: أنصفت ثم ركز الحربة وجلس، فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن، قالا: فعرفنا والله في وجهه الإسلام

قبل أن يتكلم لإشراقه وتسهله[١]، ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلي ركعتين، قال فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين ثم أخذ حربته فأقبل عامدًا إلى نادي قومه ومعه أسيد بن حضير.

قال: فلما رآه قومه مقبلًا قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي خرج به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأوصلنا وأفضلنا رأيًا وأيمننا نقيبة، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله.

قالا: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلمًا ومسلمة ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام حتى لم تبق دارٌ من دور الأنصار إلا وفيها رجالٌ ونساء مسلمون[٢]، هكذا كان مصعب ابن عمير رضي الله عنه حكيمًا بما تلقى من حكمة القرآن بليغًا مؤثرًا كما تعلم من بلاغة القرآن وقوة حجته، وهكذا صاغ القرآن مصعبًا وجعل منه هذه الصورة الفذة الفريدة التي قدمت في سبيل الله في وقت عز فيه النصير.

ثالثًا- هند بنت عُتبة:

هذه هي هند التي امتلأ قلبها بالأمس القريب غيظًا وبغضًا للإسلام وللرسول صلى الله عليه وسلم وكم ألَّبت وهيجت أعداء الله للنيل من الإسلام واستئصال شأفة المسلمين وهي التي كانت تقول يوم أحد:

---

(١) تأمل كيف كان أثر القرآن في أسيد وسعد؟ وكيف عرف الإسلام في وجهيهما قبل أن يتكلما؟ وكيف قيل: لقد رجع إليكم بغير الوجه الذي خرج به.

(٢) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٤٣٨)، وابن كثير في «البداية والنهاية» (٣/ ١٥٢)، وصححه محقق السيرة النبوية لابن هشام.

نحن بنات طارق نمشي على النمارق
إن تقبلوا نعانق أو تدبروا نفارق
فراق غير وامق [١].

ومن شدة غيظها وبغضها للإسلام هذا كان الموقف المؤلم حيث بقرت هند بنت عتبة بطن حمزة بن عبد المطلب بعد مقتله وأخذت كبده فلاكتها ومضغتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها واتخذت من الآذان والأنوف خدمًا ـ خلاخيل ـ وقلائد [٢].

ولما كان فتح مكة وأسلم أبو سفيان أقبلت إليه هند بنت عتبة زوجته فأخذت بلحيته ثم نادت يا آل غالب اقتلوا هذا الشيخ الأحمق، قال: فأرسلي لحيتي فأقسم بالله إن أنت لم تسلمي لتضربن عنقك، ويلك جاء بالحق، فادخلي أريكتك واسكتي.

وكانت هند بنت عتبة على قوتها وصلابتها وتعصبها للشرك والكفر في الجاهلية في حمية وشدة توحي بأنها لا يمكن أن تتحول عن عقيدتها الفاسدة ولا عبادتها المدخولة، ولكن الله قدير يفعل ما يشاء، يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وهو سبحانه لا يسأل عما يفعل، فأراد الله لهذه المرأة الشريرة أن تعرف طريق الهدى وتخرج من ظلمات الشرك والجهل إلى نور اليقين والاستقامة والهداية، فشرح الله صدرها للإسلام يوم فتح مكة بعد إسلام زوجها أبي سفيان بليلة، قالت هند لأبي سفيان: إني أريد أن أبايع محمدًا، فقال: لقد رأيتك تكذبين هذا الحديث أمس، قالت: والله ما رأيت الله عبد حق عبادته في هذا المسجد قبل الليلة، والله إن باتوا إلا مصلين، قال: فإنك قد فعلت ما فعلت فاذهبي برجل من قومك معك، فذهبت إلى عثمان بن عفان وقيل إلى أخيها أبي حذيفة بن عتبة، فذهب معها فاستأذن لها فدخلت وهي منتقبة، فقالت: يا رسول الله الحمد لله الذي أظهر الدين الذي اختاره لنفسه لتنفعني رحمك، يا محمد إني امرأة مؤمنة بالله مصدقة برسوله،

(١) النمارق: هي الوسائد، ووامق أي محب.

(٢) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٩٠)، «الرحيق المختوم» [٢٧٦].

ثم كشفت هند نقابها وقالت: أنا هند بنت عتبة، فقال رسول الله ﷺ: «**مرحبًا بك**»، فقالت: يا رسول الله! ما كان على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلى أن يذلوا من أهل خبائك، وقالت: يا رسول الله! إن أبا سفيان رجل شحيح، فهل عليَّ جناحٌ أن أخذ من ماله ما يكفيني وبني؟ قال: «**خذي بالمعروف**»(١).

رابعًا- النجاشي ملك الحبشة:

وهو من التابعين برغم أن الرسول ﷺ صلى عليه صلاة الغائب وإسلامه قبل ذلك في حياة رسول الله ﷺ لكنه لم ير النبي ﷺ وإنما رأى الصحابة الذين هاجروا إلى بلده، وهذا الموقف الذي نسوقه يبين عظمة تأثير القرآن في النفوس وهدايته للقلوب وتبصيره للعقول، ومحقه للباطل، وإزالته، وغرس الحق وترسيخه، وذلك حينما هاجر من هاجر من صحابة النبي ﷺ إلى الحبشة، فكانوا في جوار هذا الملك العادل آمنين فأعملت قريش كيدها وأرسلت عمرو بن العاص، وعبد الله بن ربيعة وزودتهما بالهدايا لكي يقوم بطرد هؤلاء الصحابة وقدمت الهدايا إلى النجاشي ووزرائه من أجل أن يشيروا على الملك بإبعاد هؤلاء الصحابة وإخراجهم من الحبشة، وكان من إنصاف هذا الملك وعدله أن أبى ورفض ذلك حتى يسمع من الصحابة، فأرسل إليهم ودعاهم إلى مجلسه فجاءوا وقد أجمعوا على أن يصدقوا في حديثهم معه فيما ساء وسر.

وكان المتكلم بين يدي الملك هو جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه فسألهم النجاشي: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به في ديني ولا في دين أحدٍ من الناس؟

---

(١) «أسد الغابة» (٥/ ٤١٦)، «الطبقات» لابن سعد (٨/ ١٨٨)، «حياة الصحابيات» لفؤاد سراج، ص(٥١٠-٥١٢) ط: التوفيقية.

فقال جعفر رضي الله عنه: أيها الملك، كنا أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونُسي الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف حتى بعث الله إلينا رسولًا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا لتوحيد الله وأن لا نشرك به شيئًا، ونخلع ما كنا نعبد من الأصنام، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة وصلة الرحم، وحُسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وأمرنا بالصلاة والصيام، وعدَّد عليه أمور الإسلام، قال جعفر: فآمنا به وصدقناه وحرمنا ما حرم علينا، وحللنا ما أحل لنا، فتعدى علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان، فلما قهرونا وظلمونا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك ورجونا ألا نظلم عندك، فقال النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله شيء؟ قال: نعم، فقرأ عليه صورًا من: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، فبكى النجاشي وأساقفته، وقال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة، ثم قال لعمرو بن العاص وعبد الله بن ربيعة انطلقا والله لا أسلمهم إليكما أبدًا [(١)].

ومن بعد ذلك الموقف وهذه الآيات التي سمعها صار الملك مسلمًا عاش حياته على الإسلام وراسل الرسول عليه الصلاة والسلام، ولما مات النجاشي نعاه النبي صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وصلى بهم صلاة الغائب على النجاشي رحمه الله وكانت الحجة والبرهان الذي أيد الله به جعفر رضي الله عنه هو القرآن الذي أحدث في نفس هذا الملك من العلم والإيمان ما جعله بهذه المنزلة والمكانة حيث يصلي عليه الرسول والصحابة بعد موته فيا له من فضل ويا لها من كرامة!!

خامسًا- طائفة الجن:

وهذه طائفة من الجن مروا برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر فارتاعوا من عظمة القرآن وتعجبوا من حسنه وروعته ولم يتمالكوا أنفسهم حتى

(١) رواه أحمد برقم [١٧٤٠] وصححه الألباني كما في هامش «فقه السيرة»، ص [١٢٣]، ط: الريان.

سارعوا إلى الإيمان به والإذعان له ودخلوا في دين الله وصاروا دعاة إلى الله حيث انطلقوا سراعًا إلى قومهم منذرين وداعين إياهم إلى الله عَزَّ وجَلَّ، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣١].

وفي الصحيح من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: انطلق النبي ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: قد حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب، قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي ﷺ وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم وقالوا: يا قومنا: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١-٢]، فأنزل الله على نبيه ﷺ ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾، وإنما أوحى إليه قول الجن[1].

قال السعدي رحمه الله: «قل يا أيها الرسول للناس» ﴿أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ صرفهم الله إلى رسوله لسماع آياته لتقوم عليهم الحجة ولتتم عليهم النعمة ويكونوا منذرين لقومهم، وأمر الله رسوله أن يقص نبأهم على الناس وذلك أنهم لما

(١) رواه البخاري برقم [٤٩٢١]، ومسلم برقم [٤٤٩].

حضروه قالوا: أنصتوا، فلما أنصتوا فهموا معانيه ووصلت حقائقه إلى قلوبهم، فقالوا: إنا سمعنا قرآنًا عجبًا أي من العجائب الغالية والمطالب العالية [١].

سادسًا- الطفيل بن عمرو رضي الله عنه:

ومن هذا الباب ما ورد عن الطفيل بن عمرو رضي الله عنه قال: كنت رجلًا شاعرًا سيدًا في قومي فقدمت مكة فمشيت إلى رجالات قريش، فقالوا: إنك امرؤ شاعرٌ سيد وإنا قد خشينا أن يلقاك هذا الرجل فيصيبك ببعض حديثه، فإنما حديثه كالسحر، فاحذروه أن يدخل عليك وعلى قومك ما أدخل علينا فإنه فرَّق بين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وابنه، فوالله ما زالوا يحدثوني شأنه وينهوني أن أسمع منه حتى قلت والله لا أدخل المسجد إلا وأنا سادٌّ أذني، قال: فعمدتُ إلى أذني فحشوتها كرسفًا ثم غدوتُ إلى المسجد فإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم قائمًا في المسجد فقمتُ قريبًا منه وأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله، فقلت: والله إن هذا للعجز وإني إمرؤ ثبت ما تخفى عليَّ الأمور حسنها وقبيحها، والله لأتسمعن منه فإن كان امرؤ رشدًا أخذتُ منه وإلا اجتنبته فنزعت الكرسفة فلم أسمع قط كلامًا أحسن من كلام يتكلم به، فقلت: يا سبحان الله ما سمعت كاليوم لفظًا أحسن ولا أجمل منه، فلما انصرف تبعتُه فدخلتُ معه بيته، فقلت: يا محمد، إن قومك جاؤوني فقالوا لي كذا وكذا فأخبرته بما قالوا وقد أبى الله إلا أن أسمعني منك ما تقول وقد وقع في نفسي أنه حق فاعرض عليَّ دينك، فعرض عليَّ الإسلام فأسلمتُ [٢].

سابعًا- جبير بن مطعم:

كان جبير رجلًا مشركًا من أهل مكة وقد قدم على النبي صلى الله عليه وسلم بعد وقعة بدر في فداء الأسارى، وذلك لكي يدفع الفدية ويسترد الأسرى وإذ به يسمع القرآن من

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن»، ص [١٠٥٤].

(٢) «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٣/ ٢٠٥)، ط: التوفيقية، وسند هذه الرواية ضعيف وذلك لعنعنة ابن إسحاق مع تدليسه كما بين ذلك محقق السير (٣/ ٢٠٦).

فم رسول الله ﷺ وهو يصلي في صلاة المغرب فأحدثت تلك الآيات التي سمعها زلزلة في قلبه وصدعت الكفر والعناد فيه وأذهبت عن هذا القلب جهله وغفلته وإعراضه وفجرت فيه ينابيع الإيمان وأنهار الرحمة والفقه والفهم والآيات التي سمعها من سورة الطور والحديث رواه البخاري ومسلم عن جبير بن مطعم، قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾ [الطور: ٣٥-٣٧]، كاد قلبي أن يطير[1]، وفي لفظ قال: وذلك أول ما وقر الإسلام في قلبي.

إنه تأثر وانفعال بآيات القرآن أثمر ذلك حصول الإيمان في القلب وتحويل الشخصية من حال إلى حال ومن طريق إلى طريق؛ لأن البرهان في الآيات ساطع ناصع ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ ﴾؟ هل العدم يخلق شيئًا؟! ﴿ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾؟ هل خلق الإنسان نفسه؟ هل خلقه أبوه؟ هل خلقته أمه؟ هل أشرف الأبوان على تكوين الجنين خلال المراحل التي مرَّ بها؟ كلا، فالذي خلق هو الله وحده، ولا يستحق أن يعبد إلا هو وحده.

ثامنًا- الفضيل بن عياض:

كان هذا الإمام في بادئ أمره قاطعًا للطريق شريرًا مفسدًا، وبينما هو غارق في هذا التيه إذ وردت عليه آية من كتاب الله سمعها في جوف الليل فزلزلت انحراف قلبه وغيرت مجرى حياته وجعلت منه إنسانًا جديدًا بقلب جديد وعقل جديد وفهم رشيد سديد، قال الفضل بن موسى رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان الفضيل بن عياض شاطرًا يقطع الطريق بين أَبيَوْرد وسَرْخس وكان سبب توبته أنه عشق جارية فبينا هو يرتقي الجدران إليها إذ سمع تاليًا يتلو: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الحديد: ١٦]، فلما سمعها

(١) رواه البخاري برقم [٤٨٥٤].

قال: بلى يا رب قد آن، فرجع فأواه الليل إلى خربة فإذا فيها سابلة (قافلة)، فقال بعضهم: نرحل، وقال بعضهم: حتى.. فإن فضيلًا على الطريق يقطع علينا.

قال: ففكرت، وقلتُ: أنا أسعى بالليل في المعاصي وقومٌ من المسلمين ها هنا يخافوني، وما أرى الله ساقني إليهم إلا لأرتدع، اللهم إني قد تبت وجعلتُ توبتي مجاورة البيت الحرام[1].

وصار بعد ذلك إمامًا يقتدى به وطار ذكره في الدنيا وانتفع بعلمه القراء والمحدثون والعلماء والزهاد والعباد على مدار التاريخ، ومما يبين لك بعض حاله التي صار عليها ما يلي:

قال إبراهيم بن الأشعث: ما رأيت أحدًا كان الله في صدره أعظم من الفضيل كان إذا ذكر الله أو ذُكِر عنده أو سمع القرآن ظهر به من الخوف والحزن وفاضت عيناه وبكى حتى يرحمه من يحضره، وكان دائم الحزن شديد الفكرة ما رأيت رجلًا يريد الله بعلمه وعمله وأخذه وعطائه ومنعه وبذله وبغضه وحبه وخصاله كلها غيره، كنا إذا خرجنا معه في جنازة لا يزال يعظ ويذكر ويبكي كأنه مودع أصحابه ذاهبٌ إلى الآخرة حتى يبلغ المقابر، فيجلس مكانه بين الموتى من الحزن والبكاء حتى يقوم وكأنه رجع من الآخرة يخبر عنها.

قال سري بن المغلِّس: سمعت الفضيل يقول: من خاف الله لم يضره أحد ومن خاف غير الله لم ينفعه أحد.

وعن فضيل قال: لا يكون العبد من المتقين حتى يأمنه عدوه.

قال الفضيل: لو خيرت بين أن أعيش كلبًا وأموت كلبًا ولا أرى يوم القيامة لاخترتُ ذلك.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٧/ ٦١٤)، ط: التوفيقية.

وعنه لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة، وحتى لا يحب أن يحمد على عبادة الله.

وعنه قال: إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك محروم كبلتك خطيئتك.

وقال الرشيد: ما رأت عيناي مثل فضيل بن عياض.

قال إبراهيم بن الأشعث رأيت سفيان بن عينية يقبل يد الفضيل مرتين.

وقال عبد الله بن المبارك: إذا نظرت إلى الفضيل جَدَّد لي الحزنُ ومقت نفسي ثم بكى[١].

تاسعًا- انتباهة قلب:

روى الواحدي بإسناد له أن رجلًا من أشراف أهل البصرة كان منحدرًا إليها في سفينة ومعه جارية له فشرب يومًا وغنته جاريته بعود لها وكان معهم في السفينة فقير صالح، فقال له: يا فتى تحسن مثل هذا؟ قال: أحسن ما هو أحسن منه، وكان الفقير حسن الصوت، فاستفتح وقرأ: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٧-٧٨]، فرمى الرجل ما بيده من الشراب في الماء وقال أشهد أن هذا أحسن مما سمعت، فهل غير هذا؟ قال: نعم، فتلا عليه: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩]، فوقعت من قلبه موقعًا ورمى بالشراب في الماء وكسر العود، ثم قال: يا فتى هل هنا فرج؟ قال: نعم: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، فصاح صيحة عظيمة[٢].

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٦١٥) وما بعدها، و«صفة الصفوة» (١/ ٤٥٦) وما بعدها.

(٢) «لطائف المعارف» للحافظ ابن رجب، ص [٥٠٢]، ط: دار ابن رجب.

شواهد من الواقع:

هذه بعض المشاهد التي صدع فيها القرآن الكفر والعناد في قلوب كانت صلدة صلبة فصاغها القرآن صياغة جديدة وأعاد إليها حقيقة الحياة وغرس فيها الإيمان بالله والتوحيد لله جَلَّ جلاله.

١- ابراهيم فيلوبوس:

هذا هو إبراهيم فيلوبوس الحاصل على درجة الماجستير في اللاهوت من جامعة برنستون الأمريكية يقول: دعيت للكلام في مؤتمر تبشيري فأطلت الكلام في ترديد كل المطاعن المحفوظة ضد الإسلام، وبعد أن انتهيت من حديثي بدأت أسأل نفسي: لماذا أقول هذا وأنا أعلم أنني كاذب؟! واستأذنت قبل انتهاء المؤتمر خرجت وحدي متجهًا إلى بيتي كنت مهزوزًا من أعماقي، متأزمًا للغاية وفي البيت قضيت الليل كله وحدي في المكتبة أقرأ القرآن ووقفت طويلًا عند الآية الكريمة: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، وفي تلك الليلة اتخذت قرار حياتي فأسلمت ثم انضم إلى جميع أولادي وكان أكثرهم حماسًا ابني الأكبر أسامة وهو دكتور في الفلسفة ويعمل استاذًا لعلم النفس في جامعة السربون وبإسلامهم زادت بيوت الإسلام بيتًا.

٢- الدكتور جاري ميلر:

وهو أحد أعضاء هيئة التدريس في جامعة الملك فهد للبترول والمعادن في قسم الرياضيات، وهو كندي الجنسية وكان من المبشرين النشطين في الدعوة إلى النصرانية، وذات يوم أراد أن يقرأ القرآن بقصد أن يجد فيه بعض الأخطاء، وكان يتوقع أن يجد القرآن كتابًا قديمًا مكتوبًا منذ ١٤٠٠ سنة ألف وأربعمائة سنة، وبالتالي فلن يكون إلا حديثًا عن الصحراء ونحو ذلك، لكنه ذُهل مما وجد فيه حيث وجد القرآن يحتوي على أشياء لا توجد في أي كتاب آخر في العالم.

كان يتوقع أن يجد في القرآن بعض الأحداث العصيبة التي مرت بالنبي ﷺ مثل وفاة زوجته خديجة رضي الله عنها أو وفاة بناته وأولاده، لكنه لم يجد شيئًا من ذلك بل وجد أن هناك سورة كاملة في القرآن تسمى سورة مريم وفيها تشريف لمريم عليها السلام لا يوجد له مثيل في كتب النصارى، ولا في أناجيلهم ولم يجد سورة باسم عائشة أو خديجة أو فاطمة رضي الله عنهن، وكذلك وجد أن عيسى عليه السلام ذكر باسمه في خمسة وعشرين موضعًا من القرآن في حين أن النبي محمدًا ﷺ لم يذكر باسمه في القرآن إلا خمس مرات.

وبدأ الدكتور ميلر في قراءة القرآن بتمعُّن أكثر لعله يجد مأخذًا عليه، ولكنه دُهش عندما وقعت عينه على هذه الآية وهو قول الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]، ثم قال: لا يوجد مؤلف في العالم يمتلك الجرأة ليؤلف كتابًا ثم يقول: ليس في هذا الكتاب خطأ واحد.

ومن الآيات التي وقف عندها الدكتور ميلر طويلًا قول الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، يقول الدكتور ميلر: إن العلم الحديث أثبت أن الخلية تتكون من السيتوبلازم الذي يمثل ٨٠٪ منها والسيتوبلازم يتكون بشكل أساسي من الماء فكيف لرجل أمي عاش قبل ألف وأربعمائة سنة أن يعلم كل هذا لولا أنه وصل إليه بالوحي من الله؟! وحينئذٍ أسلم هذا الرجل العاقل المنصف وذلك في عام ١٩٧٧ ومن بعدها وصار إنسانًا آخر بقلب واعٍ وعقل ناضج وفؤاد ينبض بالإيمان، وصارت له محاضرات في الدعوة إلى الإسلام ومناظرات مع رجال الدين النصارى[١].

٣- الدكتور موريس بوكاي:

وهو أحد العلماء الباحثين الفرنسيين وهو جراح مرموق عرفه الناس بكتابه «القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم الحديث» ذلك الكتاب الذي صدر باللغة الفرنسية

(١) أفلا يتدبرون؟ لجابر مشابط (٢٣٦-٢٣٨) بتصرف يسير ط.دار المجد.

والإنجليزية والعربية والذي تناول فيه ما توصَّل إليه في بحوثه من مقارنة بين الأديان السماوية الثلاثة وهو يعد دراسة فريدة من نوعها في تقييم الأديان من منظور العلم.

وقد بدأت رحلته العقلية من النصرانية إلى الإسلام عندما عهد إليه كجراح مبرز بمعالجة مومياء الفرعون منفتاح، وفي زيارة طبية إلى السعودية بعد ذلك أتيح له في إحدى المناقشات أن يلم بما جاء في القرآن الكريم حول غرق فرعون موسى ثم بقاء بدنه سليمًا ليكون آية لكل الأجيال من بعده، ولما كان موكاي على دراسة سابقة برواية الإنجيل عن غرق فرعون فقد دهش كثيرًا عندما اكتشف أن القرآن وحده قد قرر الحقيقة التي لم تعرفها البشرية إلا في هذا القرآن مع بداية الكشوف الأثرية والعثور على المومياوات المحنطة لفراعنة مصر، ومنها مومياء الملك منفتاح المعروف بفرعون موسى أو فرعون الخروج، وكانت تلك نقطة التحول في دراسات الدكتور بوكاي، فقرر دراسة القرآن الكريم واللغة العربية، ثم عكف على إجراء دراسة مقارنة بين نصوص القرآن الكريم والكتاب المقدس «التوراة والإنجيل» في ضوء المعارف الحديثة، وخرج من هذه الدراسة بما أعلنه على الدنيا من التوصل إلى التطابق التام بين الإشارات العلمية والتاريخية بالقرآن الكريم وبين العلوم والمعارف الحديثة بينما يتناقض الكثير مما بالتوراة والإنجيل مع الحقائق والمنطق[1].

٤- أراد حرق المصحف فاحترقت يده فأسلم:

نشرت جريدة «ترانيم» النيجيرية الواسعة الانتشار خبرًا لا يزال حديث الناس في نيجيريا بأسرها، فقد زلزل هذا الخبر معقلًا للنصرانية في ولاية كنجولا النيجيرية ، يقول الخبر: وقف القس ولبرفورس وبيده مصحف كان قد جذبه من بين أحد الحاضرين ثم ألقى به على الأرض وسكب عليه مقدارًا من البنزين وهم بإشعال عود ثقاب في

(١) «مقدمة كتاب القرآن والعلم الحديث»، د. موريس بوكاي ترجمة وتقديم د. نبيل عبد السلام هارون (٥-٨).

المصحف الشريف وكان الحاضرون يتابعون هذا المشهد وهم في ذهول، حيث جرى ذلك أثناء قداس الكنيسة وعقب هذا الحدث مباشرة أعلن فروس دخوله في الإسلام وتبعه في ذلك عدد من المبشرين بلغ عددهم ٢٠٠ مبشر[١].

٥- مستشرق أخذ القرآن بلبه فأسلم:

أسلم أحد المستشرقين المعروفين بعدائهم للإسلام بمعجزة، حيث كان سبب إسلامه أنه قال: أول ما فتحت القرآن قرأت في سورة البقرة: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١-٢]، فرأيت أن الله بدأ كتابه بالتحدي منذ أول وهلة وقد أعتدنا أن كل مؤلف يبدأ بمقدمة يوضح فيها تقصيره ونقص كتابه بخلاف هذا القرآن المنزل من الله فأسلم[٢].

٦- لماذا أسلم صديقي؟

يقول الدكتور إبراهيم خليل: ظن صاحبنا لفترة طويلة من الزمن أن بمقدوره هزيمة تحديات القرآن وظل يمني نفسه حالمًا في يقظته ومنامه أن باستطاعته تأليف كتاب سيكون عنوانه «وانتهت تحديات القرآن»، بل لقد وضع عناوين لفصول هذا الكتاب المثير منها مثلًا: القضاء على أكبر الأكاذيب الدينية في التاريخ، وأخيرًا هزمنا القرآن بالضربة القاضية إلى آخر هذه العناوين المثيرة، واعتقد صاحبنا أن دور النشر العالمية ستنهال عليه بالعروض السخية لنشر هذا الكتاب المثير الذي كان يمني نفسه بأنه سيطبع منه عشرات الملايين من النسخ بمختلف اللغات الحية لكي يفيق المسلمون من غفلتهم وغفوتهم! ولكن قبل ذلك اعتقد أن ردودًا ستنهال عليه من جميع أنحاء العالم وما عليه إلا أن يقوم بتجميع هذه الردود في كتابه المثير، ولكن خاب أمله وضل سعيه، فقد أرسل أكثر من ثمانية آلاف خطاب لجميع أنحاء العالم يطلب من هذه

(١) «موسوعة القصص الواقعية» لمصطفى كامل، ص [٣٥٧]، ط: العالمية.

(٢) «الإسلام وقضايا العصر»، ص(٢٣٠-٢٣١)، ط: دار ابن حزم.

obeikandi.com

الجهات الرد على تحديات القرآن ونقدها، ولكنه لم يرد عليه سوى أربع جهات فقط، وردودها لا تسمن ولا تغني من جوع، بل أوضحت عجزهم وضعفهم من مواجهة تحديات القرآن وبعد حوار تم بين المؤلف وهذا الرجل حول القرآن وإعجازه أشهر الرجل إسلامه وعرف الحق بعد طول عمى وأبصر النور بعد التخبط في التيه والظلام فيما مضى من عمره(١).

٧- آية توقظ القلب وتحييه:

سمعت أحد أهل العلم يقول: إن شابًا من الشباب كان قد أسرف على نفسه بالسيئات والمعاصي حتى استحكمت غفلته وكثرت بذلك همومه وغمومه، واشتد كدره وألمه، بل أصيب باليأس من الحياة وضجر من وجوده فيها، وذات ليلة اشتدت به آلامه النفسية فصرخ في جوف الليل وكأنه في بئر عميق يقول: يا رب لماذا خلقتني؟ وإذا بصوت يصدر من مذياع في بيت مجاور وإذا بقارئٍ يقرأ قول الله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذَّارِيَاتِ: ٥٦]، فوقعت الآية من قلبه موقعًا عظيمًا فخرَّ ساجدًا لله شكرًا على هذه الهداية الربانية، واشتد بكاؤه في سجوده ثم استقام على طاعة ربه، فعرف حينئذٍ طعم الحياة ولذة الحياة وذلك حينما يعيشها في ظل طاعة الله.

وحدثني بعض التائبين عن سبب توبته وذلك بعد سؤال له، فطالما تعجبتُ من حاله قبل توبته يقول: آية واحدة قرأتها وحفظتها فأبكت عيني وشعرت أنها نداء خاص بي، فلما وعيتها وفهمت معناها عرفت حينئذٍ خطر ما أنا فيه ومدى سعة رحمة الله ربي فأقبلت إليه من قريب فتاب علي وهداني وأسأله تعالى أن يثبتني على طاعته وأن يميتني عليها أما الآية التي كانت سبب الهداية فهي قول الله جَلَّ جلاله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزُّمَر: ٥٣].

---

(١) «لماذا أسلم صديقي؟» المقدمة، ص [٤٢٣]، ط: دار التراث الإسلامية بالقاهرة.

وفي نفس المجلس حدثني أحد الإخوة أنه كان قد مرت به حوادث مزلزلة وفتن قاسية يراد منها صده عن دينه وزعزعة إيمانه وانتكاسه عن الهداية يقول: فكنت أسارع إلى القرآن أتلوه وأتدبره، فإذا بآية تنزل على قلبي دواء وتحدث فيه ثباتًا وشعرت كأن الآية خطاب لي وحدي حتى مرَّت المحن والفتن ونجوت من فتنتها، فكم لله من نعمة ومنة وفضل على عباده، وتأتي المعونة على قدر المؤونة، ومن كان لله كما يريد كان الله له كما يريد وفوق ما يريد، أما الآية الكريمة التي ما أنساها ولن أنساها فهي قول ربي جَلَّ جلاله: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [فُصِّلَتْ :٤٣].

وهذه قصة شاب حكاها بنفسه وذكرها عنه محمد بن عبد العزيز المسند يقول ذلك الشاب: تنقلت من دولة إلى دولة اليونان إلى فرنسا إلى هولندا وكندا وأمريكا وغيرها وفي أمريكا أمضيت ما يقرب من ثلاث سنوات لا أذكر أني صليت إلا جمعة واحدة، وكان داعي الفطرة يدعوني إلى الله، ولكن الشيطان استحوذ عليَّ فأنساني ذكر الله، فأخذت أسارع إلى المراقص المشهورة وأعاقر الخمر بجميع أصنافها، ولابد أن يقترن الشراب بفعل الفاحشة والزنا والعياذ بالله، فبقيت على هذه الحال حتى كانت عودتي إلى موطني تزوجت من فتاة طيبة القلب ومن أسرة صالحة رجعت بعد الزواج إلى أمريكا مصطحبًا زوجتي وعدتُ إلى ما كنت عليه قبل الزواج دون علم زوجتي وكان لرفقاء السوء دور كبير في هذا الفساد، فهم متزوجون قبلي، أشاروا على أن نستأجر شقة لممارسة المحرمات وكانت البداية أن رفضت هذا الوضع المشين المزري اتجهت فورًا إلى زوجتي الحبيبة قلت: لابد من العودة في أقرب فرصة ممكنة إلى بلدنا ـ لم أعد أحتمل ـ وجاء بعض الأصدقاء يثنوني عن عزمي على العودة، فرفضت جميع المغريات وتفوقت في الدراسة وعدت إلى بلادي وبقيت ما كنت عليه، فالله لم يأذن لي بعد في الهداية فكنت أفعل المحرمات وسافرت عدة سنوات بقصد السياحة وبعد سنة تقريبًا من هذا الحال قدر الله أن أجد

في سيارتي شريطًا للشيخ علي جابر وفيه آيات من القرآن الكريم ودعاء القنوت سمعت التلاوة، وكان الوقت صباحًا وأنا ذاهب إلى عملي حتى وجدتُ نفسي أبكي مثل الطفل بكاءً شديدًا ولم أستطع قيادة السيارة فوقفت بجانب الطريق أستمع إلى الشريط وأبكي وكأني أسمع آيات الله لأول مرة، بدأ عقلي يفكر وقلبي ينبض وكل جوارحي تناديني اقتل الشيطان والهوى، وبدأت حياتي تتغير وهيئتي تتبدل، وبدأت أسير على طريق الخير وأسأل الله أن يحسن ختامي وختامكم[1].

❁❁❁

(١) «العائدون إلى الله» (١/ ٨٩-٩١) لمحمد بن عبد العزيز المسند.

obeikandl.com